ورقة من دفتروطن

(١)

عندما أضيئت السماء بالقذائف الصفراء ، تطلعت عبر النافذة الحديدية إلي قرص الشمس الأرجواني ، كان يميل إلي الذبول، يلامس حافة الأفق البعيد .. ترامي إلي سمعي صوت سيدة (خمسينية)، وجهت إلي الكلام بصوت خفيض:

*لو تسمح يا ولدي يحميك لشبابك .. .. و(صمتت)

*شوبدك يا أمي ؟!

قالت وهي تهمس وتلتفت حولها :

*أنا أم شفيق الوزان.

تمتمت وأنا أشيح بوجهي خجلا ..

*عذراً يا أمي ،سمعت من رفاق الجهاد ,, أنه مسجون لدي الغرباء، ارتبكت العجوز .. ثم نظرت إلي السماء الحُبلي بسحب متقطعة .. ولمحت تجمد الأيام في الوجه العجوز وهي تردد بعض الأوراد

*يا لطيف .. يا سابل الستريا رب .. لا إله إلا الله ..

(٢)

انتصف النهار ولم أغسل وجهي .. نحن معاً في الشارع ، عصراً والشمس حادة .. كنا جميعاً مسلحين ، هتف قادم:

* الغرباء يقصفون الضاحية من الثكنة المقابلة.

لحظتها .. أطلت علينا السيدة العجوز، كانت سمينة، قصيرة، تمشي في صمت.. متثاقلة، وعندما وصلتنا لمحنا وجهها مشرقاً بابتسامتها التي اعتدنا عليها، هتف الجميع بفرح :

* أم شفيق الوزان.. أم شفيق الوزان !!

في الأيام الماضية كنا نذهب إليها، نأكل في دارها، الزعتر والجبن والخبز الساخن، ونعفر لفائف السجائر.. كانت تفرح بباعة الخضار والفواكه.. القذائف بجوارهم تتساقط وتحفر الإسفلت، وتدمر البنايات، ومع ذلك يواصلون البيع حتى حين تنفذ بضائعهم.. يظلون جالسين بجوار الأقفاص الخاوية..

(٣)

بعد شهر...

في الهزيع الأخير من الليل .. لم نذق طعم النوم .. لقد اشتد المرض علي (أم شفيق) .. ورحلت وفمها الرقيق يوزع علينا صنوف الكلام :

*المدينة .. المدينة .. موعدكم الجنة بإذن الله !!

ورحلت في صمت مطبق .. لحظتها شعرنا جميعاً بالبرد القارص وشاخت قلوبنا .

(٤)

استيقظت في المخيم.. لا أعرف كم لبثت في النوم.. خرجت إلي الشارع .. كان صوت الموت ورائحة البارود هو السيد لحظتها.. والدروب الضيقة تحرثها المدافع.. تذكرت الآن أن روحي فقط هي كل ما تبقي لي من العائلة.. فما الذي أبكي عليه.. لم أعد أملك بيتاً يحميني من الرياح الشتوية، أو خزانة احتفظ فيها بكتاب أورادي ..

ومن الغرابة -وبالأخص في هذه اللحظة- أن أتذكر حبيبتي فاطمة.. أشتهي صوتها ، لأشعر بالدفء، بعد رحيل (أم شفيق) نفخت الفكرة من رأسي عندما لمحت الأزهار تذبل في أصيصها علي الشرفات .

* أيمكن أن يصدر الياسمين هذه الرائحة وهو يموت ؟! .

مازلت أنقل قدمي المتعبتين بين الركام والأدخنة المتصاعدة من مصادر مجهولة .. واحتوتني زحمة الجثث بين حنايا الأزقة ،والدروب المدمرة معظمها:

* هل دُمر قبر أم شفيق الوزان ؟!

هززت رأسي نافياً قبل أن أتحقق من الإجابة.. لمحت علي بعد أمتار مني.. يقترب.. يقترب .. كان يحملق في.. صرخت فيه بهلع :

* أنت ... مين ... أنت مين ؟!

أربكني عجزي وقلة حيلتي.. لم أجد أحدًا يجلس علي المقهى ؛ لأسأله عن هذا القادم الغريب.. حتى بائع (السميط) اختفي.. لم يكن يجلس في مكانه المعتاد .. ساعتها أحسست أن الكون قد ترامي وامتد، وراح يبوح بالظل في وجه الحقيقة .

(٥)

لقد زاد المطر وأخذ يمزح علي سطوح البيوت الآيلة للسقوط .. وقتها لمحت زجاج الحياة مغبراً .. فانتعش بداخلي كلام دبت فيد نشوة حب.
وهممت بترك المكان.. لكن شيئاً ما منعي.. وقيد حركتي فأحسست أن حياتي هنا .. تحت سور المدينة.. عدت أرمق العجوز القادم.. حاولت أن أرتق ذاكرتي.. فشلت .. اقترب أكثر.. فصاحت أمعائي بـ «ظراط» متكرر.. إنه من الخوف لا التخمة، فبطني خاوية منذ موت (أم شفيق).. وشعرت بعشب بحر جاف يستقر في حلقي .. ساعتها كان القمر مخنوقاً.. وأشباح المقابر القريبة من الجبل تتنطط في غبطة .. عدت ألتفت إلي العجوز، لقد اختفي.. فاستوحشت المكان.. وأخذت أغوص في الدروب الثعبانية، في هلع.. وكأن عفريتاً قد لبسني.. صرخت :
* أين العجوز .. أين الناس ؟!

(٦)

سقط فكي وتجمد.. عندما لمحته يخرج من تحت غطاء المجاري .. تأملته كان يعتمــد علي يديــه اليابستين، ليخـــــرج.. رأيتــه يحمل علي رأسه - المعروقة- قصعة ملطخه بالدماء عليها أثداء نساء وأعضاء رجال منكمشة ....

* لقد مات العالم يا مازن !..

(كانت هذه أول كلمات أسمعها من العجوز).. شعرت بالغثيان.. فتقيأت .. وتعملقت الحرارة في جسدي، فأخذتني أجمع البصاق في فمي، وبكل ما أملك بصقت في وجه العجوز.. قهقه وقال :

* لا عليك.. أقدر حزنك.. لقد مات العالم يا مازن.. أين كنت .. ؟!

* .....

* لم يبق من العالم إلا أنا وأنت وقصعة الأعضاء هذه !!

* كيف حدث هذا ؟!.. أنت كاذب !!

وارتفع صدي كلماتي الأخيرة.. وعاد الصوت يطن بداخلي.. والعرق يتفصد من كل جسدي.. ثم عاد العجوز يتكلم بعد وقت طويل.. فبدت أسنانه الصناعية شديدة السواد.. وبعد لحظات أوقفتني الدهشة عند سور المدينة، عندما لمحت بندقيتي ذات (السنكي)اللامع في حوزة (أم شفيق) توجهها علي رأس العجوز.. راح يصرخ كالمخبول، وأخذ يعبث في الأعضاء المبتورة في هلع وارتفع صوت(أم شفيق) بالزغاريد :

* الغرباء ليسوا بحاجة إلي رجال بل أرادوا مفاتيح المدينة !!

سادني ارتباك ورعشة فرح.. عندما أحسست بأول أشعة الفجر تتسلل فوق المئذنة.. ورأيت المدينة الجميلة شمعة تضئ وترتعش ،رغم كل ما يحيط بها من ظلام مطبق ودمار! .